طعم الفراق(1)
ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة

ربعي المدهون*

صيد البدايات

يُطلق القطار صافرته التحذيرية . تنغلق الأبواب الستة في العربات الثلاث بصورة أوتوماتيكية . ويتَحرك من محطته الأولى في ضاحية «ريتشموند» الراقية والجميلة، بصورة اعتيادية، ومع ذلك ينتابني شعور غامض عرضة للتكهّن، ويحتمل غير تفسير . الرحلة لم تلغ، ولم يتم، أبداً، تجاهل جدول المواعيد المطبوع منذ سنوات، والمعلّقة نسخة منه على حائط في المحطة مثل جدول محاضرات جامعية مملّة. مثل هذا يحدث كثيراً، لا، بل إنّ التأخير والإلغاء أصبحا من تقاليد شبكة قطارات جنوب غرب لندن التي تسارع، وللأمانة، إلى لفت أنظار الركاب المعنيين إلى ذلك، من خلال توجيه نداء . إلا أن، هؤلاء وللأمانة أيضاً، لا يلتقطون من مكبر الصوت الصغير القديم المعلّق في زاوية رطبة مهملة من المحطة، والذي أسيء توزيع الصوت الصادر منه، منذ البداية، سوى كلمة واحدة : أُلغيت، ثم أنهم، وبحكم العادة والتكرار، لايتوقعون إذاعة بيان مختلف عمّا اعتادوا سماعه، كالإعلان، مثلاً، عن مجانيّة الرحلات اليوم، خصوصاً بعد الارتفاع الأخير في ثمن التذاكر، أو عن تزويد القطارات بمكيّفات لا ضرورة لها، أصلا، أو بثّ موسيقى كلاسيكية ترافق الركاب طيلة الرحلة، فيما يغلق نصفهم أذنيه بموسيقى هي من اختياره الشخصي .

وهكذا، ما أن يطلق مكبر الصوت دقتي التنبيه المعروفتين، والمسموعتين جيداً حتى خارج المحطة، «طن طَن»، حتى ترحل الآذان باتجاه الميكروفون، وما أن تعود، بعد ثوان، حتى تكون الوجوه والملامح قد اكتست بغبار ردود فعل خارجة عن أية تحفظات . «فيُشَتشت» بعضهم، وهم يغادرون المحطة غاضبين، بإنجليزية واضحة وسليمة: « شِت، شِت»، بينما «يُفَكْفِكَ» آخرون، ويسبّون، وبعضهم لا يتردد في

سبّ نفسه، ربما لأنه أضاع وقته في انتظار القطار، وكان بإمكانه أن يصعد إلى مترو الأنفاق الذي كان يستعد للانطلاق، قبل قليل طبعاً، لكن لم يقع شيء من هذا على الإطلاق، وإلا كان القطار قد تحرك من محطة «ريتشموند» أصلاً . وهكذا توصلت إلى استنتاج أخير بأن ما انتابني من شعور غامض ليس سوى فرح ما في طور التشكّل .
أسعدني ذلك وأراحني من ملاحقته مؤقتاً، ورحت أتصفّح جريدة «القدس العربي» التي ترافقني، عادة، في رحلتي اليومية إلى العمل . أبدأ بزاويتها الأخيرة «هواء طلق»، أسخر من تقلّب أمزجة بعض كتابها. أمرّ على صفحة الرأي . أقرأ بعض المواد الثقافية . أتوقّف طويلاً عند ترجمات الصحف العبرية التي تعكس، بصورة يومية، الاتجاه السياسي والأمني في إسرائيل، وتكشف عن تقلّبات مزاج الرأي العام، والتغيّرات التي تحدد نسبة من هم ضدنا ومن هم ضدنا، وهي من أفضل ما تقدمه عموماً .
أتابع غضب رئيس تحرير الجريدة؛ عبد الباري عطوان، الذي يشبه، في تقلباته، طقس لندن . يزداد حدة في لحظات صعود موقف عربي متخاذل، أو ظهور تراجع فلسطيني ويعود إلى هدوئه مع عودة التماسك إلى الموقف، فيخرج آمالاً نامت بين السطور. هكذا أصبح مؤكداً أن القطار سيواصل انطلاقته، وأصل أنا إلى محطة «كامدن رود» في الوقت المحدد، أي بعد حوالي أربعين دقيقة من الآن، فأغادر المحطة إلى الشارع الذي تحمل اسمه، كما يفعل الركاب عادة .
أعبر الشارع مسرعاً، مثل الآخرين، الذين يبدون مطاردين لسبب ما . أصل إلى محطة قطارات الأنفاق الشهيرة «كامدن تاون»، التي تقول أغنية: إنها تحفظ للعشاق مواعيد لقاءاتهم .

In Camden Town
I meet you in the underground

ها أنذا بين مدخلي المحطة، أرقب أجساداً متعبة تتلوى على الحيطان، لشبّان من الجنسين يقفون بتكاسل، محمولين على سيقان كأنها لغيرهم . يبدون مثل عناوين الصحف الشعبية، لا يخشون ما نعتبره فضائح. أمرُّ بهم يتبادلون قبلات ذابلة هي من بقايا سهرة الأمس . لا ألتفت كثيراً، أخرج من باب المحطة إلى شارع السوق . سيارة شرطة بيضاء تمرّ مسرعة، يلوح ضوؤها الأزرق فوق سطحها وهي تزعق بصافرتها، ثمّة مشكلة في مكان ما، لكن أحداً لا يكترث لمرورها، أو يسأل نفسه عن مشكلة لا تخصّه أبداً. اليوم هو الأحد، ومن الطبيعي أن أصادف في الشارع العام، في صباح كهذا، خارجاً من سهرة نهاية الأسبوع، مجموعات من «البانكس»، يجرّون أجساداً متعبة ثقيلة، وقد غاصت سيقانهم في أحذية سوداء ذات كعوب عالية ورقاب طويلة مرصّعة بدوائر معدنية فضية يكادون لا يظهرون منها، فتبدو كأنها تسير بمفردها .
عند نهاياتها، غالباً ما ينسدل شعر طويل أسود فاحم محلّى بشرائط قطنية رفيعة ملونة . وربما جلس رأس حليق، أو نصف حليق، تربّعت عليه شجرة من البلاستيك الملوّن، أو شرائط صوفية سميكة نازلة، عند بعضهم، فوق كومة من أقراط معدنية، تجعل من أذنيه ملعقتين فضيتين تتدلّيان على جانبي وجهه . وهذا النوع لا يكتفي بمَعْدَنَة أذنيه، في العادة، بل يشمل ذلك أحد حاجبيه، أو كليهما، وأنفه، وربما شفته السفلى، ويقال: إن بعضهم لا يتردد في تعليق أقراط في أماكن حساسة أخرى من جسده!

أُسرع الخطى إلى مكان عملي . أتصفّح وجوها كالحة في صباح مشرق قلّما يتكرّر . أصيح بالعربية على منير السوري الذي يضحك للشاورما وهو يعلّقها استعداداً لاستقبال زبائن سوق الأحد: صباحو أبو النور . ابتسم لسماع صاحب مقهى «موكّا» يوزّع أوامره على العاملات التشيكيات لديه بإنجليزية ذات نكهة شامية . أعبر إشارة المرور . أجتاز الجسر الإسمنتي الثابت، المرتفع قليلاً فوق مياه لا تستغني عن أعشابها . أتذكّر زميلاً لي لم يزل يخشى عبور الجسر، منذ حادثة وقعت العام الماضي، فأضحك . كان غادر مكان العمل، ذات يوم، رفقة زهير، حين استوقفهما شاب أسود عند حافة الجسر، عارضاً «بضاعة» . توقّف زهير، وأخذ يمازحه . صاحبنا لم يتوقف، بل تلعثمت قدماه كما يتلعثم اللسان فيختلط الكلام بالكلام .. خاف من «البضاعة»، صرخ:

زهير ... بتعمل إيه يا زهير، الله يخرب بيتك ... ده مجرم؟

«حبكت» مع زهير، ايش بيك يا أخي، خ نشوف إيش عنده، يقول لك آكو بظاعة كُلِّش زينة.

وانفجر ضاحكاً، ولحق بزميله الذي كفّ عن عبور الجسر منذ تلك الحادثة الصغيرة، وصار يسلك طريقاً خلفياً للوصول إلى مكان عمله، أمّا أنا فلم أكترث لوجود أولئك المهربين الصغار، وهم لم يعترضوني ببضاعتهم، على أية حال، سوى مرّة واحدة . كنت غادرت مكتب العمل، ساعة الغداء مع زميلي عزيز عبد الحي، الأثيوبي الذي يأخذني التمشي معه، في شوارع «كامدن تاون»، إلى زمن الجدل الفكري والمعارك الأيديولوجية وعزّ اليسار، الذي فقد عزّه . هو ما زال شاباً، يحلم بالتغيير، وبأثيوبيا جديدة يقودها «وندم» (رفيق) ملس زيناوي، خارجاً بها من تحت أنقاض نظام منغستو هيلا مريام . التغيير ... نعم أيهَا اَلـ«عزيز»، هذا ما يسعى إليه الجميع . أُنظر إليّ، مثلاً، كم تغيّرت على مرّ السنين، ولم يتغيّر ما سعيت إلى تغييره . أما أنت فلا أدري أين سينتهي بك التغيير Good Stuff .

همس شاب أسود يضع يديه داخل جيبيّ بنطاله، وينزوي عند حافة الجسر الجنوبية، حين مررنا به . وسار خلفنا بضع خطوات متابعاً عروضه، مشجّعاً كلانا، أحدنا على الأقل، على تجريب الصنف: Just Try It عزيز التفت خلفه محاولاً إفهام الشاب ضرورة التوقف عن اللحاق بنا، لا كرهاً في «البضاعة»، ولكن لأن المهرّب شبه العلني، بدأ يفسد بعروضه جدلنا المحتدم حول ما يمكن استخراجه من الماركسية بعد طرح لينين منها . صاح عزيز:

Come on man ... I am Muslim

رد الشاب الذي توقف فعلاً عن السير خلفنا:

So what ... I am Muslim too

Oh my God

هتف عزيز ... وانفجر ضاحكاً شاتماً:

يا ابن الكلب

وضحكنا للمفارقة ..

أنعَطف خلف زاوية الشارع إلى الممر المؤدي إلى وكالة اسوشييتدبرس للأخبار المصورة، حيث أعمل، مخلّفَاً ورائي مقهى اسبرسو، يحتضن عدداً من خفافيش الليل السود من البانكس، يحتسون قهوتهم

حول طاولة في ركن المقهى الأمامي .
خلفهما تماماً، شابان يجلسان متجاورين إلى طاولة قرب زاوية البرّاد الكبير . هل تبادلا قبلة سريعة لحظة مروري من أمام المقهى؟ أمطّ شفتي . لم يعد الأمر يثير اهتمامي إلى حد كبير، لكني ربما، قلت لا شعورياً: يا فتّاح يا علّيم على هالصبح . فبعد خمس سنوات من العيش وسط المجتمع البريطاني، بدأت أكتسب بعض مناعة ساعدتني على مواجهة مثل هذه الظواهر. صرت أتجاهلها، مع أنني لم أستطع أن أفعل ذلك حين غرقت وسائل الإعلام البريطانية، مؤخراً، في تغطية المناقشات الدائرة في البرلمان ومجلس اللوردات، لخفض السن القانونية للمثليين إلى سن السادسة عشرة بدلاً من الثامنة عشرة . وتطبيع «الشذوذ الجنسي» بين المراهقين الصغار .
حقاً، لقد أشعرني ذلك بالغثيان، حتى أنني أطلقت على تلك المناقشات «ديمقراطية القفا»، وهكذا، غادر القطار نهائياً محطته في ضاحية «ريتشموند»، بصورة طبيعية، لولا تلك المفاجأة التي اخترقت كل هواجسي وذكرياتي .
ففي اللحظة التي خرج فيها القطار من حدود الضاحية وزاد من سرعته، خرج أبي من ظلّ بعيد في الذاكرة قاطعاً المسافة، منذ وفاته حتى الآن، كي يهبط عليَّ في القطار، جثة لُفَّت بملاءة بيضاء مثلما رأتها أمي قبل ثمانية وثلاثين عاماً . في حينه قالت إنها رأت بركة صغيرة تخثّر دمها عند خاصرته اليسرى، ألقيت نظرة على جثمان أبي، فيما كانت يدي تُخرج ورقة وقلماً . ووجدتني أكتب دون أن أرفع عيني عن جسد أبي الذي لم يُسمح لي برؤيته يوم وفاته: مات أبي .. أنهى أربعة وثلاثين عاماً هي عمره ومات .
جاء سعيد المدهون إلى غرفة الفصل في مدرسة خان يونس الثانوية ليبلغني، ولم أتوقف إلا بعد أن أفرغت العبارة الأخيرة على الورق: أحسست بالأرض تزلزل حيطان المعسكر . رأيت المعسكر يصعد نحو السماء. رأيت السماء تبكي أبي . أسندت رأسي إلى جدار الحائط، وانفجرت باكياً من جديد، ونعش أبي الأبيض يمضي نحو البعيد .
وضعت القلم فوق الأوراق على ركبتي، وألقيت نظرة عبر النافذة، من بين دمعتين علقتا بمقلتي . كانت ثمّة حقول تركض، وأشجار لم أرها من قبل، تتلاحق مروراً أمام عيني، في الاتجاه المعاكس لاندفاع القطار. ارتبكتُ ... لم أر هذه المشاهد من قبل! لم أتعرّف عليها أبداً . هل ركبت القطار الخطأ؟ هل ينقلني هذا القطار إلى مناطق مجهولة؟ يا إلهي، هذا غير ممكن، فقطار «نوريتش» الذي صعدت إليه، قد يغيِّر كل شيء إلا رصيفه . إنّه يتوقف عادة، على سكة الرصيف رقم 4 أو 5 في «ريتشموند».
تحسست قدميَّ، خفت أن تكونا وقفتا على رصيف آخر . عدت إلى النظر خارج النافذة . خفض القطار من سرعته . تباطأ مرور الأشجار في المزارع الخضراء الممتدة أمام ناظري . دهشت . اقترب القطار من المحطة . دهشتي غدت حيرة مفاجئة . دخل القطار المحطة، تبددت حيرتي لحظة أن قرأت اسم المحطة مخطوطاً بلون أبيض على اليافطة الزرقاء المثبّتة على الرصيف:«دالستون» .
توقف القطار . التقطت القلم ولملمت الأوراق ودسستها في حقيبتي . أطلقت سراح الدمعتين وجفّفتهما . وهبطت من القطار مسرعاً وقد أدركت أنه تجاوز محطة «كامدن رود»، التي اقصدها، بثلاث محطات .

انتقلت إلى الرصيف المقابل أنتظر القطار القادم من الجهة الأخرى كي يعيدني إلى «كامدن رود». وهناك وقفت أتفحّص بعيني المنطقة التي أخذني إليها حضور أبي المفاجئ. ووجدتني غارقاً في ذلك الفرح الذي كان يتشكّل غامضاً بعد صعودي إلى عربة القطار .... هتفت منتصراً: يا إلهي ... لقد أنجزت الفصل الأول الذي كنت أبحث عنه.

* * *

حملتُ ما أنجزته في القطار إلى صديقي الشاعر أمجد ناصر لإطلاعه عليه. كان أمجد قد ألحَّ عليَّ، مراراً، أن أكتب تجربتي: «هذا التاريخ الشفوي الذي لا تعرفه الكتب الرسمية والمدرسية، ينبغي أن يدوّن. علينا أن ندونه بروحه ونكهته وبمفرداته الشعبية المحكية كما عايشناه. نلملم الحكايات من أفواه الناس العاديين ... هذا هو التاريخ الحقيقي الذي يصنعه ناس عاديون. تجربتك غنية، وتستطيع قول الكثير .. يا أخي اكتب .. بس اكتب، ستجد الذاكرة وقد فتحت لك خزائنها يا أستاذ».
بعد اطّلاعه على الفصل الأول، أو ما افترضت أنه فصل أول، هتف أمجد بحماس: «جا – ميل». هكذا يلفظ أمجد، عادة، كلمة «جميل»، حين يريد للمعنى أن يتدفق بأكثر مما تحتل الحروف: «جا – ميل». فصل جميل يا صديقي، وأدهشني ذلك التأويل في مشهد تلقي النقود من الدك في المستشفى».
إذاً، كان تقديري صحيحاً. سأبدأ بهذا الفصل. وسيكون عنوان «والدان»، وسأروي فيه قصة والديَّ. أدهشتني نفسي من نفسي، فأنا لم أبدأ الكتابة بهذا الفصل، ولم يكن الوحيد الذي أنهيت كتابته على أية حال، فقد كنت عمدت إلى كتابة ما تستحضره الذاكرة، تاركاً، بتعبير أمجد، خزائنها المفتوحة تتدفق مقدمة خياراتها، فتدفقت أمامي مثل نهر من كلمات أخذت تجري على الورق حيناً، ومثل شلال من حروف سود تتلاحق على الشاشة الفضية للكمبيوتر الجالس في حضني مثل طفل أداعبه.
ثم بدأت في غربلة ذلك الدفق الكبير، وإعادة تركيب ما نقله إليّ من وقائع وأحداث وحوارات، اخترت لها قالب الجاز. وأخذت أكتب كمن يدوّن نوتات موسيقية.
لم أجد التوليف السيمفوني والخضوع لقالب «السوناتا» والتزام حركاته الثلاث وإيقاعاتها مناسباً. ربما كان «الكونشرتو» الذي تتحاور فيه آلتان موسيقيتان، أو آلة أوركسترا، أكثر مطابقة لطبيعة السرد في بعض فصول هذا العمل، لكن الجاز هو المناسب لغالبيتها. ذلك أن كلاً من هذه الفصول، يُعَدّ مقطوعة متمايزة في تراكيبها تماماً. تجمع عناصر درامية وأحداثاً وشخصيات ومفاهيم مختلفة ومتنافرة، وحتى متناقضة لبعضها ومتناقضة مع بعضها، يؤدي كل منها دوراً مختلفاً. لكنها تعود وتتآلف في إطار متناسق، وتندفع مشكّلة، أو هكذا حاولت أن أجعل منها، وحدة متماسكة تحت مظلة عنوان يحميها من اعتداء غيره من العناوين.
عندما اطمأننت إلى ذلك، انتقلت إلى الفصل الثاني وما يليه، أي إلى ما أعتبرته المقطوعة الثانية من مقطوعات الجاز، كما قررّت أن أطلق عليها بدلاً من مصطلح الفصول الشائع. قبل أن أفعل، غيّرت عناوين الفصول التي أنجزت كتابتها، فأصبحت مقطوعات: ألبوم الطفولة: حكايات بريئة، وضحى أحمر: أسطورة شهداء، وقصة والدين، وبائعة القماش، وفيلم: جسد فيفي، وشقيقتي التي تزوّجت.

كنت أكتب، وكانت زوجتي تتلقف الصفحات مثل أرغفة ساخنة تخرج من فرن الحكايات . تقرأ، تتذوّق، تراقب، تطمئن، وتتدخل . فقد وقفت وراء هذا المشروع منذ وقت طويل وتريد له النجاح . بكت وأسقطت دمعاً كثيراً على نعش أبي، مثلما ضحكت وأعجبت وانبهرت، أيضاً، عند اطلاعها على مقطوعات أخرى. وأظهرت، أحياناً، رفضاً واستياء، من بعض ما قرأت، وأجبرتني على شطب كلمات اعتبرتها مقرفة، أو مخلّة بالذوق العام، حتى حسبتها عضواً في لجنة للمراقبة على المصنفات الفنية .

وفي مرات معدودة تركت ما بيدها احتجاجاً، مفضّلة متابعة قراءتها لرواية «آنجلاز آشز»، للأميركي، من أصل إيرلندي، فرانك ماك كورت . معها حق، الرواية جميلة ومتميزة، وتحمل جاذبيةً قوية للقراءة، على الرغم من طابعها المأساوي الحزين . ثمّ إنّ زوجتي، في مرّات أخرى، استغرقت في مشاهدة حلقات المسلسل الأميركي «صن ست بيتش»، لكنها، رغم كل ذلك، لم تتخل أبداً، عن موقفها الداعي إلى اعتماد فصل «والدان»، الذي أصبح بعد التعديل «قصة والدين» كأفضل ما يمكن أن أبدأ به الكتاب .

يوم الجمعة الفائت، الثالث من كانون الأول / ديسمبر 1999، كتب أمجد ناصر في زاويته الأسبوعية؛ «هواء طلق»، في «القدس العربي» معترفاً بإعادته النظر في موقفه من رائعة ألبير كامو «الغريب»، في ضوء قراءة البروفيسور إدوارد سعيد لها، في مؤلفه المهم «الثقافة والإمبريالية» . وقد ذكّر أمجد بالجملة الافتتاحية للرواية، والتي تركت تأثيرها على عدد من الأعمال التي بدأت بعبارات مشابهة أو اتخذت من موضوع الموت مدخلاً لها: «اليوم، ماتت أمي ... أو ربما ماتت بالأمس» . هكذا بدأ مارسو عبارته الشهيرة .

حين التقيت أمجد في موعدنا الأسبوعي، صباح الاثنين 6/12/1999، في المقهى الواقع في الطابق الأول، من مبنى البلدية، في ضاحية «هانزلو»، حيث أقيم، حملتْ زاويته تلك، إلى لقائنا مذاقاً جدلياً طيّباً، إلى جانب الشاي الذي تناولته، والقهوة السادة التي أخذ يرتشفها . تحاورنا وتناقشنا إلى أن دخلت عبارة كامو: «اليوم، ماتت أمي ...» بيننا مثل إشارة مرور حمراء أوقفت الكلام وأمسكت بحروفه من خاصرتها، تنبّهت، والتقط أمجد الانفعال عن ملامحي .

علّقت: «أظنها جدلية الحياة والموت بإغرائها الذي لا يقاوم هي التي دفعتني، أنا، أيضاً، إلى اختيار بداية تشابهت مصادفة مع بداية الغريب: «مات أبي ..» . وقلت لنفسي محاولاً إبعاد شبهة التأثر المباشر بكامو: إن مؤلف الغريب لم يكن واحداً من ركّاب القطار الذي كان يفترض أن ينقلني إلى «كامدن تاون»، حين كتبت تلك العبارة، ولم ألتق «مارسو»، منذ تعرّفت عليه أول مرة في أواخر الستينيات، ولم يصاحبني في تلك الرحلة التي رافقتني فيها جثة أبي، وكتبت خلالها: «مات أبي ...» . وأنجزت مسوّدة الفصل الأول .

عفواً يا صديقي، لم أقصد ما كتبته أنت بالذات، قال أمجد، مستدركاً مالا يمكن استدراكه بعد النشر . هو يقصد أعمالاً منشورة بالطبع، لكنني دخلت دائرة الانتقاد حتى قبل النشر، ثم جاءت نصيحة من زهير الجزائري أوقفتني عند هذا الفصل ما زاوية أخرى . فما أن انتهى زهير من إلقاء نظرة سريعة عليه أثناء عملنا في «الاسوشييتدبرس»، وكنت طلبت منه أن يبدي رأيه، حتى استدار في مواجهتي قائلاً بلهجته التي يؤكد، في مناسبات معينة، أنها لم تعد عراقية:

«كلِّش حزين»،
وصمت قليلاً قبل أن يضيف:
«حلو .. حزين»
وجدّد صمته .
قلت لنفسي: إذاً سأثبّت قراري . وسيكون هذا الفصل المقطوعة الأولى، بغض النظر عن اختيار موضوع الموت مدخلاً له . ولتكن خان يونس، التي شهدت وفاة أبي غريباً عن مسقط رأسه في المجدل عسقلان، أولى مدن فراقنا، زهير خرج عن صمته فجأة ليعترض:
«لا يا أخي .. لا تبدأ بالموت،
يعني
ما أدري،
كيفك» .

*   *   *

«ما العمل؟» ...
أطرح سؤال لينين، وأتجاهله لكثرة ما غسلنا به شوارع حيرتنا الفكرية والسياسية في «المنعطفات التاريخية التي مرت بها أمتنا العربية»، التي لم تزل تخرج من معطف كي تدخل آخر كأنها أمة من المنعطفات . عطف الله عما سلف، انهارت الإشتراكية، واختفت إجابة لينين وبقي لنا نحن السؤال مجرّداً. أستعير سؤال لينين الآخر الذي بقي منه قليل لم يهترئ بعد: «بم نبدأ؟» ... حقاً بم أبدأ؟
أبدأ هذا العمل، بمقطوعة، «فيلم: جسد فيفي» . أدخل تعديلات على المقدمة تتضمن قليلاً من الإثارة . ستكون تلك بداية مشوقة حقاً، وتناسب عملاً أدبياً يطمح صاحبه إلى اجتذاب أعداد كبيرة من القرّاء . وسوف يكتب نقاد وينشرون مقالات تتناول هذا العمل. وسيكون ذلك بدافع ممارسة النقد، أو من باب عرض الكتب، أو بهدف الحصول على سبعين، أو حتى مئة جنيه استرليني، لقاء كيل مديح لعملي هذا، أو تسديد لكمات نقدية قاتلة له، أو لتحقيق كلا الهدفين معاً . وسوف يتعرّض، بعضهم لذلك المشهد الافتتاحي، ويتهمني بالتهرب من استخدام لغة صريحة، وربما بالتخلّف والجبن . فيقال، مثلاً: إن النص يكون واقعياً، ويتحلّى بمصداقية أكبر، ويعكس جرأة وصراحة مطلوبتين، ما دام العمل يندرج في خانة «أدب الاعتراف»، مع أنني لا أقدّم اعترافاً لأحد، لو أن الكاتب عرض بصورة صريحة الأشياء بأسمائها، وتخلّى عن تعامله مع الجسد وتكويناته وأعضائه ورغباته بهذه الحساسية، وذلك الخوف الذي ترتجف له حروف كلماته . وسوف يغضّ هؤلاء النقاد النظر عما تنطوي عليه لغة صريحة، كالتي يدعون إليها، من إثارة .
من حسن الحظ أنني ما زلت أناقش الموضوع . وأنني لم أقرر بعد، البدء بتلك المقطوعة، وذلك المشهد الافتتاحي . وأنني أستطيع التخلي عن ذلك بسهولة . وليعذرني القارئ، على اضطراري إلى تجنب انتقادات قاسية من جانب نقاد نظلّ بحاجة دائمة إلى قراءاتهم .
وهكذا، قررّت أن أرسم مشهداً جنسياً «إيروتيكياً» يكون أكثر إثارة، وأن أستخدم لغة واضحة وصريحة

تجتذب إعجاب النقاد وتستجلب ثناءهم، غير أني سرعان ما اكتشفت أنني قد أتورّط مع نوع آخر من النقاد، ومع طلاب يحتجّون بكلمات غاضبة، وربما يستخدمون العصي والحجارة في التعبير عن معارضتهم لي . سوف يكتب هؤلاء، فيما يجوب أنصارهم الشوارع، ويدورون في ساحات الجامعات: هذا ليس أدباً، بل قلّة أدب . أليس هذا بعض ما قيل في حيدر حيدر وروايته «وليمة لأعشاب البحر»؟ بعد سبعة عشر عاماً على نشرها! دانوه ... كفروه ... لعنوه ... وتظاهروا ضده، فطبع ابنه مجد، الذي بات يشرف على دار «ورد» لطباعة ونشر أعمال صاحبها، عشرات آلاف النسخ، على ما قيل . حقاً «تطرّف قوم عند قوم فوائد» ... عندما نشر حيدر حيدر وليمته، كان كثيرون يفضلون ولائم شواء اللحم والدجاج على الفحم، واحتساء «الأوزو» الأبيض، في جبال «ترودوس» القبرصية، على قراءة الرواية . كنا نعيش آنذاك، زمالة عمل طويلة نسبياً، وصداقات عابرة نحو قطيعتها، في مدينة لا ذاكرة لها ولا أصدقاء .

ولم يكن حيدر حيدر يحلم ببيع مئة نسخة من روايته . ولو حصل وباع فعلاً، لعلم بذلك جميع العرب في نيقوسيا، لأن احداً لم يكن قادراً حتى على إخفاء أحلامه . حينذاك، قرأت من الرواية، بصعوبة، ثلاثين صفحة، فقط . لست من عشاق ما يسمونه بـ «الرواية الشعرية»، ولا معجباً بأسلوب حيدر أو أدواته الفنية، على الرغم من وجوده الحيّ بين الروائيين السوريين زمناً طويلاً وهو في منفاه .

ألزمتني الضجّة التي رافقت إعادة طباعة الرواية في القاهرة، في مايو / أيار الماضي، بالعودة إلى قراءتها . قطعت بصعوبة مسافة مئة وخمسين صفحة، مشياً بين السطور وفوق الكلمات، ولم أعثر على الضجّة المثارة، بل على عمل لم يثر فيّ حماس متابعة قراءته حتى النهاية .

تمنيت، مثل آخرين، لو أن حيدر حصل على تلك الشهرة بسبب أهمية الرواية، وليس نتيجة «خلاف بين أهل الأرض على ما يجري في السماء»، لكني أكون قد خدعت القارئ بلجوئي إلى حداثة مبنية على أيروتيكية بورنو – كلاسيكية . وقد تبدو إعادة كتابة ما جرى في المطبخ بيني وبين فيفي ... عفواً، عند مراجعتي الأخيرة لما كتبت، وجدت أنه من المفيد التذكير، هنا، بأن فيفي التي أتحدث عنها، لا علاقة لها بالراقصة الشهيرة . وهذا إقرار مني واضح يجنبني أي اتهام بمحاولة النيل من سمعة راقصة دولية، تستطيع شراء محكمة أو حكومة، وربما مجلس الأمن الدولي والاتحاد الأوروبي، ناهيك عن محكمة العدل الدولية، وجرائم الحرب، وتلقي بي في «تخشيبة» مخصصة لتربية أنواع القمل والبقّ البلدي والأميركاني المستورد . مع أن الأمر لا يعدو كونه تشابه أسماء . ولمزيد من تأكيد عدم وجود علاقة بين الفيفيتين، أذكر بأن الراقصة الشهيرة لم تكن شهيرة، ولا راقصة أصلاً، حينذاك . كان الهز كلّه لنجوى فؤاد .. بلدياتنا.

كم فرحت وأنا أستمع إلى الصبية في الحارة يرددون بثقة ويقين، أن نجوى فؤاد فلسطينية الأصل، ومن يافا . أهتف: صحيح .. صحيح .. فقد كنا نلمّ الفلسطينيين من الأغاني والأفلام والمسارح، عبد السلام النابلسي فلسطيني، بدر لاما فلسطيني، هكذا قال عوني الشوا، أنا سألت أمي إن كانت تعرف أن نجوى فؤاد فلسطينية، من يافا، برمت بوزها شبرين، وردّت علي قائلة: «يا فرحة أهلك ... ارتفع رأسنا لفوق، كمان هزة بطن ولاّ هزتين بترجع فلسطين لأهلها» .

كانت بقايا مدارس الرقَص الأصيل تنسحب تاركة أرض المسارح لـ «الهشبكة» التي توّجتها أغنيات

«الطشت قال لي» و«السح الدح امبو» . وكانت تحية كاريوكا في طريقها إلى التقاعد، بعد أن غيّرت من الأزواج ما يعادل بدلات الرقص التي اشتهرت بها . وبعد أن استوطن الشحم على ردفيها وخصرها الذي كان يحتضنه طفل صغير بذراعيه . أما ميمي جمال، وآه من ميمي جمال، كان رقصها ألحاناً وكان جسدها عازفاً . اختفت، انسحبت مثل نهار أجبر على الإنسحاب أمام زحف ليل لا يحترم ليله .

أغلقت مدارس الرقص أبوابها، ولم يبق سوى البطن ينطّ فوق خشب المسارح، والصدر مشغول، يلمّ بحمّالتيه عملات نفطية دافئة . قلت: إن إعادة ما جرى في المطبخ بيني وبين فيفي الشغّالة، قد يفهم منها أنني استهدفت إغراء القارئ بمشاهد جنسية مثيرة لمواصلة القراءة بحثاً عن مزيد، لكن تطوّراً مفاجئاً، وقع، فيما بعد، قلب البدايات والنهايات .

فبعد اطلاع أمجد ناصر على مخطوطة «طعم الفراق» كاملة، قدّم ملاحظات قيّمة، أخذتُ بمعظمها، عند المراجعة الأخيرة . وكان أكثر تلك الملاحظات أهمية تأكيده على أن المقطوعة التي تحمل عنوان «فيلم: جسد فيفي»، إضافة إلى مقطوعتين أخريين قصيرتين، خارجة عن سياق العمل الذي يضم عشرة مقطوعات أخرى، عدا مقطوعتي الكتاب الأول .

ورغم اتفاقنا على الإمتاع الكامن في النص المشار إليه، فإنني صادقت أمجد على ملاحظته . وقلت له حين أعاد إليّ المخطوطة: لقد أخرجتني يا صديقي من جسد فيفي، وأخرجت فيفي من جسد هذا العمل، غير أنني أعترف، هنا، أنني في تلك اللحظة، بالذات، ذقت طعم فراق تلك الفتاة التي كانت جزءاً من حياتي. متاهة أخرى ... حيرة أكبر ... بم أبدأ إذاً؟

أعود إلى لينين، الذي خرج من رأسي قبل سنوات، هو ومقولاته وخطبه ومؤلفاته وأعداؤه الفكريون من كامنييف وزينفييف، إلى تروتسكي وآخرين، دون أن يأخذ سؤاله معه . أكرّر السؤال «بم نبدأ؟»، مثلما أكرّر الرغبة في العودة إلى «والدان»، أو «قصة والدين»، الفصل الذي اخترته والذي يبدأ بـ «مات أبي ..»، غير آبه بألبير كامو، ولا بـ «غريب» مارسو . وليذهب «مارسو» الذي فضح إدوارد سعيد عنصريته، هو وأمه إلى الجحيم . لست الأول ولن أكون الأخير الذي يبدأ بالموت . إلياس خوري فعل ذلك، أيضاً، في روايته «باب الشمس»: «ماتت أم حسن ...» . وسواء أكان الميت أم حسن، أم أمّ «مارسو» أم أبي، فسوف أجد طريقي إلى تمايزي الخاص، فموت أبي لا يشبه موت أي منهما، موته لا يشبه إلا موته، مثلما لا تشبه حياته سوى نفسها .

حياته التي عرفتها، منذ نهايات صباه، تكبر في أزقة حارة المدهون وشوارع المجدل عسقلان . تتسلق الزمن مثل شجرة لبلاب نحو مراحل العمر . لم ينتظر والده، سليم محمود ربعي المدهون، تاجر الأقمشة، اكتمال تسلّقه المرحلة، فسارع يبحث له عن عروس . قال لشقيقه محمود الذي يكبره بسنوات: «أخوك كبر، ولازم ندوّر له ع بنت الحلال اللي تظبه حتى ما تطلع عينه بره ع بنات الناس»، وصادقه محمود القول، فقد سبق، طبعاً، أن «ظبوه» هو نفسه ودلول شعبان المدهون في بيت واحد .

راقبت سليم يتقدم لطلب يد لطيفة لإبنه خليل، ورأيت كيف ارتسمت على وجه والد العروس خليل نصر الله، تاجر الأقمشة المتجول، الذي لا يبتسم عادة، لرغيف الخبز الساخن، ابتسامة ظننتها عابرة، إلا أنها لم تكن كذلك، بل تواصلت وامتدت على شفتيه الرفيعتين حتى بلغت عرض قماش البفتة الذي

يبيعه، وكيف تماوجت زرقة عينيه فرحاً، ورقصت كما يرقص موج عسقلان للصيّادين .
رأيت لطيفة وخليل يسبحان في بحر عينيه وهو يسأل سليم: بدك لطيفة لخليل يا سليم؟ .. مرحباً بكم . خليل ابني زيه زي عبد الفتاح واخوته .. أصلاً هو وعبد الفتاح «طيزين في لباس» . وأحسن من خليل ما راح انلاقي .. على بركة الله .
ودفع خليل المدهون، وكان في الثامنة عشرة من عمره، يعمل موظفاً في معسكر مدني للجيش البريطاني، يقع على مقربة من بلدة الفالوجا، لخليل نصر الله، ثلاثماية جنيه فلسطيني، مهراً لعروسه لطيفة التي أنهت عامها الثالث عشر قبل أيام، فقط، وكان مهراً غالياً مثل كل مهور البنات في المجدل . فقد كان سكانها عموماً أغنياء، ولم يكن بينهم فقراء، ولم تعرف مدينتهم البطالة . فمن لم يجد عملاً اشتغل في صناعة النسيج على النول اليدوي، وهي مهنة «إن ما أغنت سترت» كما يقولون، واشترى خليل لعروسه ست قطع ذهبية لبستها لطيفة في ليلتها الأولى .
وتمّ عقد قران خليل على لطيفة، وأعدّ بيت العائلة الصغير . كان لسليم بيتان، تنازل عن الصغير منهما لابنه العريس، فجّهزه والد العروس بكل ما يلزم، وجاء يوم الزفاف، ويا لذلك النهار الذي رأيت فيه لطيفة بفستان زفافها . هل شاهد أحد زفاف والديه، وسهر حتى أخذه أبوه، الذي لم يكن أبوه، أمه التي لم تكن أمه، إلى المحاولة الأولى؟ هل جرّب أن يراقبهما عريسين في قمة سعادتهما لا يوقظهما صراخه، ولا يختلفان حول أسلوب تربيته، ولا يسمع أمه تغني له وتتغزل بما أنزله في حفاظه وهي تنظّفه وتستبدل الحفاظ، في لحظة يهرب فيها أبوه من رائحته، تاركاً زوجته تترنم بأغنيات صغيرة، كي تقنع نفسها بأن ما تشمه هو رائحة الريحان وليس ما ينبعث من حفاظ وسخ .
جاء ذلك اليوم يرفل في ثوب من ضوء صيفي أبيض ساطع كأنه ثوب عروس . كأن النهار تزوج النهار . نقشت العروس أصابعها، وصبغت يديها بالحناء . رتبت ملابسها الجديدة في صندوق خشبي مطرّز بنقوش فضية: أثواب الجلجلي والبلتاجي والجنة ونار وأبو متين المطرزة بغرز الحرير للزيارات والأفراح، و«خلقة» للبيت، وشالين من القطن، وثلاث شالات حرير، وكلّه من صنع المجدل، ومَكْحَلَة نحاسية صغير على شكل إبريق فخاري، وثلاث وربات للرأس من الشاش الأبيض، وملابس داخلية من البفتة، وهذه، أيضاً، مصنوعات محلية وعدداً من الشباشب .
بعد الظهر بقليل، وعندما كان الجميع يستعدّ لسهرة العمر، مات ابن عمة العروس، ابن سليم صالحة، الملقب بالحاج سليم بروق، زوج عمتها آمنة . وتبلّلت حارة المدهون بالخبر . وجرى همس كثير سَابَق النهار الراكض نحو مسائه: كل عرس وإلو قرص، ييي ما أسخم بختك يا لطيفة، يعني ما جاش هالصبي إموت إلا اليوم، قال الفرح في جهة والعزا في جهة، قدر ومكتوب، يا عمي ايأجلو العرس لبعد الأربعين .
انقلبت الحارة بسكانها المداهنة، وكانوا الأكثر عدداً بين العائلات المجدلية . وحين تنقلب حارتهم تهتز المجدل كلّها، من حارة لبد شمالاً حتى آخر حدود حديقة البلدية جنوباً . ومن أرض الخلّة شرقاً لبيدر الحاج عبيد غرباً . ووقع المداهنة بين خيارين قاسيين: إما أن يغطّوا فرح لطيفة وخليل بأحزان بيت الحاج سليم بروق أربعين يوماً، ويتزوّج خليل ولطيفة على السكّيت، ويمرّ المساء مثل المساء، ولا يظهران

فرحتهما بفرحتهما، أو يفرشون فرح العروسين فوق نعش أحزان آمنة والحاج سليم بروق، ويطير عقله وعقل زوجته، وجميع أفراد بيت صالحة، المقيمين في حارة المدهون .
خليل نصر الله قال: خلينا نأجل العرس يا بو محمود، العروس بنتي والميت، الله يرحمو، ابن اختي آمنة، وما بيصير بنتي تتجوّز يوم دفن ابن أختي .
سليم رد بحزم: عليّ الطلاق بالثلاثة ما بيتأجل .
سخرت من سليم وقلت: على إيش يا سليم نازل تحلف بالطلاق بالثلاثة ومرتك ميتة ... حرام عليك يا زلمة، كان تبرير سليم المدهون لرفضه، وإصراره على إتمام الزواج في موعده، هو أن الحاج سليم بروق والد المتوفى لا يمتّ لعائلة المدهون إلا بنسبه معهم، ولا يلزمهم ذلك بأحزانه .
جنّ خليل نصر الله، وكان، منذ عرفته، عصبياً سريع الانفعال، لا يحتاج، أصلاً، إلى من يدفعه إلى الجنون . خبط ركبتيه بكفيه ولعن الساعة التي وافق فيها على زواج ابنته من ابن سليم . وانتهى الأمر إلى قطيعة بين الرجلين سليم المدهون من جهة، وخليل نصر الله، والحاج سليم بروّق وزوجته، طبعاً، من جهة أخرى، دامت خمس سنوات كاملة . وحملوا بعضها إلى غزة مع الحاجيات القليلة التي حملوها معهم أثناء هجرتهم من المجدل في العام 1948 .
أما المداهنة فما أن حلّ المساء، حتى توافدوا على بيت والد العريس، لكنهم لم يسهروا حتى الفجر على أنغام عود محمد الجرّاح المدهون، كما جرت العادة في زيجاتهم . وكما كان متوقعاً، أيضاً . فبعد أقل من ساعتين على صمدة العروسين، نهض خليل وأمسك بيد لطيفة وغادر البيت على عجل . كان يريد أن يضع حدّاً للسهرة، حتى لا يطفو الفرح فوق أحزان عروس لم تكن قادرة على الفرح .
في الصباح، لم يكن فرح العروسين يشبه الفرح . ففي الجهة الأخرى كان لون الحزن يظلّل جانب الحارة الذي يقع فيه بيت الحاج سليم برّوق والحاجة آمنة، لكن ذلك لم يمنع الذين جاؤوا يباركون صباحية العروسين من الحضور . وكان أغلبهم شبه صامتين، إلا واحدة أطلقت لسانها يرفرف في الحارة:
«إيبا وأشوفك يا بو محمود بطربوش غاوي
إيبا وأصيل والأصل مجدلاوي
إيبا ويا نجوم السما طلّي وظاوي
إيبا وبيت العز والكرم بيتك يا بو محمودي
أولولولولولولولولولولولولولولولي»

ولما سمعها خليل نادى على أخيه محمود الذي كان واقفاً قرب الباب يستقبل ووالده المهنئين ويلمّان النقوط، وحين جاء همس في أذنه أن يسكت المرأة فوراً، لكنه حين خرج كان لسان المرأة قد همد مثل جناحين متعبين . عندها اضطر محمود إلى أن يطلب من الأخريات عدم المهاهاة، أو إطلاق الزغاريد لأجل خاطر العروس التي توفي ابن عمتها في يوم زفافها .

* * *

وحملت لطيفة زوجة خليل سليم المدهون، لكنها لم تحتفظ بالجنين في تلك السن الصغيرة فأسقطته . وبعد قرابة نصف عام حملت مرة أخرى، وأحسست بي جنيناً ينمو في داخلها، يعيش المتاعب التي يسببها دون أن يدركها، ويضحك من طرافة وحام أمه، الذي قالت عنه عندما رأته على جلد خاصرتي اليسرى: «هذي كبدة خروف مشوية»، وقلت عنه أنا، عندما دلّتني عليه: «هذي ليفة حمام يمّه» . غضبت كثيراً حينذاك، إذ أفقدتها نكهة وحامها .

هكذا مضت شهوري التسعة، بين متاعب ونمّو ومزاح وحراك فرح له خليل ولطيفة، إلى أن جاءت لطيفة آلام المخاض . قالت لي مرة: «والله يمّه غلبّتني وعذبتني وطلعت روحي تَ نزلت من بطني . مع إنك بقيت زي الدودة، ناشف ومعظرط ومعصوص مص» .

في عزّ ظهيرة يوم من أيام إبريل، وليكن الرابع عشر، إلى أن أتأكد من صحة ذلك، سمعت صرختي الأولى تعلن حضوري إلى الدنيا وتوزّعه على حارة المدهون، وصوت الداية نفيسة تهنئ أمي: ألف ألف مبروك ما إجاكي يا لطيفة ... طلع صبي . أطلقت ضحكتي الأولى: فرحانين إبي .

فتحتُ عيني . تعرّفتُ على الموجودين: عمتي دلول أكبر أشقاء أبي، ودلول زوجة عمي محمود، وهنية زوجة عمي محمد ثاني إخوة أبي الذكور، الذي اشتهر بـ«اعليم»، ووجوه لم أتعرف عليها بسهولة . بعد صرختي الأولى، وتهنئة نفيسة، انطلق صوت قادم من بعيد، كان ذلك صوت رقية، أم خليل سلامة، عمة أبي، قادمة من أول الزقاق تهنئ أبي بي:

إيبا وألف مبروك إجاك ولد
إيا ويتربى في عزك للأبد
إيبا ومطرح ما يخطى سلامة
إيبا وافرح يا خليل يا زينة الشبابي
أولولولولولولولولولولولو لي

وامتلأت أذناي الصغيرتان بالتهاني، ونبض قلبي بالفرح ... مبروك ما أجاك يا خليل ... مبروك يا خويا ... مبروك ما إجاكي يا لطيفة ... مبروك يا بن عم ... مبروك يا قرابة ... مبروك يا سلفتي ... مبروك يا جار ... مبروك يا بنتي ... مبروك ياختي ... مبروك يا جارة ... مبروك يا بني ... مبروك يا بنت العم ... إيش رح تسمّوه؟ ربعي ... ع اسم سيده . ردّ أبي .

وظلّ والداي يلمّان التهاني والزغاريد على مدى أسبوع .. يلفانها بمناديل حرير خضر، يجعلانها صراراً من ذكريات حلوة، وكبرت ... غادرت حجم الدودة، ولم أعد ممصوصاً، حسب وصف أمي، وبدأت أركض في ساحة البيت الصغيرة .

في عامي الثالث، تخطّيت عتبة البيت، وتعثرت قدماي وسقطت . تلقفتني أمي بكفيها، «اسم الله عليك يمّه»، ووضعتني في حجرها . وسقط برميل بارود رمته طائرة حربية يهودية وانفجر . شدتني أمي إلى ذراعيها بقوة ورمت بي وبها إلى ما وراء العتبة . واندلعت نيران في البيت الواقع عند نهاية الشارع . وصرخت أمي: «الله يسترك يا خليل ويحميك» . وكان أبي في المقهى الذي افتتحه، مؤخراً، عندما بدأت

الطائرات اليهودية غاراتها . وتصاعد صراخ اختلط بدخان غطى الحارة خلال دقائق: «هذا بيت عمتي آمنة، صابو قيزان»، أمي قالت، ولم أفهم في حينه . بعد سنوات طويلة عرفت أنه بيت الحاج سليم بروق، زوج عمتها. وعرفت، أيضاً، أن بيتنا الذي انحدفنا خلف بابه لم يكن بيتنا الذي شهد زواج أبي وأمي واحتفى بولادتي. قلت لأمي: «أني بحكي عن بيتنا يمّه» . ردت عليّ: «لأْ يّمه، إنت ناسي كنت أزغير، ايش بيعرفك . يمّه هذا اللي بتحكي عنه بيت الحاجة خديجة الحلاق . إتأجّرناه المدة الأخيرة، إتأجرو سيدك سليم . بيتنا الأولاني إطلعنا منُّه فجأة،غصب عنا.. دشّرنا فيه كلّ غراظنا ورحلنا بعد مصيبة خليل الشيخ سلامة. أصرّ سيدك نعطيه البيت وننقل ع بيت الحاجة خديجة اللي بالأجار» . وحزنت بأثر رجعي يمتد مسافة خمسين عاماً وأكثر، حين عرفت مصادفة أن بيتنا لم يكن بيتنا، وأن الذي كان بيتنا كان بيتنا .

* * *

كان خليل الشيخ سلامة ابن رقية، عمة أبي، والبالغ من العمر سبعة عشر عاماً، يواصل عمله، المعتاد، خلف نوله الخشبي، وكان إلى جانبه أحمد نصر الله المدهون، عم والدتي، الذي يشاركه العمل في القاعة، وقد جلس على كرسي من القشّ، يحتسي كوب شاي أعدّه قبل لحظات، حين دخلت دلول شقيقة خليل الكبرى القاعة لاهثة، وخاطبت خليل قائلة: الحقني يا خويا .. ابن قاسم عاكسني واعترظ طريقي وأني رايحة أودي الغدا وجرة الميه لأبوك ع الكرم .
ورديتي عليه واللا لأ .
سبيت عليه وكسرت الجرة ع جْنابه .
امتلأ صدر خليل بالغضب، وشعر بحجم الإهانة التي ألحقها به ابن قاسم، وصار يرتجف . ظن، وخمّن، وفكّر، وتوجّس، وتخيّل: ماذا لو ذهب ابن قاسم إلى مقهى علي محسن، وسط البلد، وهو حتماً سوف يذهب، الآن، أو في أي وقت آخر، فهذه عادته، وروى أمام جمع من الشبان ما حدث؟ ثم ماذا لو بالغ في روايته، وادعى تجاوب شقيقته دلول لكلمات غزله الوقحة؟ صرخ .. وضرب قائمة النول على يمينه بقبضته، وهو يقفز خارجاً من جورة النول . وضع جاكيتته على كتفيه، وكوفيته البيضاء على رأسه، وشدَّ إليها عقاله الأسود . تناول بندقية الصيد التي يحتفظ بها في ركن جانبي في القاعة تحت بكرة المسدية الضخمة مباشرة، وهم بالخروج، فاعترض أحمد طريقه . شده من ذراعه بقوة وصرخ في وجهه: إهدا يا خليل وحط عقلك في راسك... خليني أني أشوف ابن قاسم وأحكي معه بالهداوة، وانبهه عشان ما يعيدها .
أزاح خليل أحمد من طريقه وصرخ:
أني ابن قاسم يغازل أختي وأسكت له ... ما ببقاش خليل إن ما ربيته .
واندفع يركض بعيداً عن القاعة، وعادت دلول مسرعة إلى بيت ذويها تحمل قلقها وخوفها من أن تؤدي شكواها إلى ما لا يحمد عقباه .
وسمع صوت طلق ناري بدّد سكون ظهيرة المجدل . أعقبه، مباشرة، صوت رصاصة أحدثت صدى مغايراً سمعته القرى المجاورة . وطار حمام كثير من على حيطان وأسطح بيوت المدينة . وفرّت عصافير الدوري

في كل الاتجاهات، ونبحت كلاب بعيداً داخل البيّارات، وسارع أصحاب الحوانيت التجارية في السوق وحواليه إلى غلق حوانيتهم، وأنهى مصلّون صلاتهم في المسجد الواقع وسط السوق على عجل، ولم يتسن لبعضهم تناول حذائه الذي تركه في الزاوية القريبة من الباب .
هرب الناس في الحارة إلى بيوتهم، واختفى المارّون من الشوارع القريبة، وغادر رواد مقاهي المدينة مقاعدهم على عجل، وتصحّرت المجدل في عزل الظهيرة . لا بد أن انطباعاً عاماً بوقوع اعتداء قام به مسلحون يهود من مستوطنة «نغبا» القريبة، قد تولّد لدى الجميع في تلك اللحظة، خصوصاً بعد تزايد أخبار هجمات منظمات «هاغاناه» و«شتيرن» و«ليحي» و«ايتسيل» اليهودية في المناطق المحيطة بمدن يافا وحيفا وصفد والقدس وانتشارها .
في تلك اللحظة، أيضاً، قفز أحمد من مكانه، وصرخ: «استر يا رب ... عملها خليل سلامة»، وأغلق باب القاعة خلفه وركض في اتجاه ما، من المفروض أن أحدّده، لكنني، في الحَقَيقة، رأيت أحمد يركض، فعلاً، بعد مغادرته القاعة، ولم أتمكن من ملاحقته، فقد انشغلت بمراقبة دلول التي سمعتها تشهق عميقاً، ورأيتها تضرب صدرها بكفها ندماً، وتهمس بعيداً عن أذنيّ والدتها: «يا ريتني ما خبَّرت خليل لو لا حيكت لُهْ» . وكراوٍ للحدث، أصابني ارتباك من تزايد قلقها وهي تواجه والدتها وتستمع إليها تعبر عن مخاوفها من وقوعٍ مكروه في الحارة، لأنها قالت في تلك اللحظة بالذات: «هالطخ كأنه في الحارة يا دلول» . وكان ذلك كافياً لمضاعفة مخاوف دلّول . أما رقية فقد مضت، رغم ذلك، تجمع مواسير الغزل التي أنجزتها، وأخذت ترتبها في سلة البوص، فيما دلّول تستعين بالسماء لتهدئة نفسها المضطربة .
وكانت السماء مضاءة بشمس الظهيرة حين رفعت إليها عينين متوسلتين: «يا ربّ ما يكون خليل عملها . يا رب إبعد الشر عنه» .
قلتي إشي يا دلّول؟ .
هزها سؤال والدتها المفاجئ . فردت بصوت راعش:
قلت: اللهم اجعله خير .
سقط ابن قاسم على الأرض جثة هامدة أمام باب القاعة الخالية . وأصيب خليل لثوان بما يشبه الشلل وهو ينظر إلى الشاب وقد بدأ يغرق في دمه، أفاق بعدها ليجد بندقيته في يده، ويضع عينيه على الحقيقة: لقد قتل ابن قاسم، مع أنه لم يقصد أن يقتله . استدار وأخذ يعدو عائداً إلى بيته . كانت والدته، قد انتهت من وضع المواسير في السلّة، التي علقتها بساعدها وهمّت بالخروج بها إلى قاعة النسيج، ولم يخطر ببالها أن خليل غادرها مذ حين . ولم تحاول دلّول اعتراض طريق أمها خشية انكشاف الحقيقة، لكن الحقيقة دهمت رقية في اللحظة التي فتحت فيها الباب، ورأت خليل أمامها وبيده بندقيته، كان مكفهّر الوجه بلا ملامح، وقد امتلأت عيناه بالدموع . رقية قرصها قلبها .
«خير يمّه، إيش اللي رجَّعك بدري، ولإيش البارودة في يدك .. إوعى لتكون .. لأ .. يا سخام البين علينا .. إوعى يا خليل» .
ألقى خليل بنفسه على صدر أمه، وقال بصوت راعش متهدج: «يمَّه طخيت ابن قاسم وابن قاسم طخني».
سقطت السلة من ساعد رقية، التي انهارت وتكوّرت فوق جسدها خلف عتبة الباب من الداخل، وتدحرج

ما في السلة من مواسير في أرجاء البيت، وانتشرت خيوط الغزل الرفيعة في غير اتجاه .
«أجيب لك ميّه يمّه» ..
قالت دلّول، وركضت نحو إبريق الماء الفخاري الأسود الموضوع على حافة نافذة غرفة والديها . دفع خليل الباب خلفه، ورمى بندقيته من يده وجثا على ركبتيه أمام والدته التي أخذت تلطم خديها، وتندب حظها:
«يمة والله ما ني عارف ايش اللي صار... ما شفته الاّ ساحب المسدس وطاخخ عليَّ، وما دريت بحالي إلاّ وأني طاخخ عليه. سامحيني يمة سامحيني» .
أبعدته رقية برفق. نظرت إليه عميقاً. مسحت دموعها بطرف منديلها، وأزاحت يد دلّول التي مدت نحوها إبريق الماء. وقالت لخليل بصوت حازم: «روح دوغري يا مسخم على اهلك سلِّم حالك لمركز البوليس لجديد، روح قبل ما ييجي البوليس ويعتقلك»، نهض خليل. التقط بندقيته بيد راعشة، واستدار خارجاً من البيت .
سلّم خليل نفسه وبندقية الصيد، التي قتلت ابن قاسم، لمركز الشرطة. فعل ما نصحت به أمه، وسهرت المجدل، تلك الليلة، حائرة تقلب التفاصيل. وخرج خليل الشيخ سلامة من سجنه بعد شهرين، بريئاً من تهمة القتل العمد، وقد اكتفت المحكمة بأن ألزمته بدفع غرامة مالية. وانفتحت أفواه عشرة آلاف مجدلي، هم سكان المدينة، تمضغ الدهشة وتلوك الحكايات. وسال الكلام من بيت إلى بيت. وعبر الهمس ثقوب الجدران. واعتلى القيل والقال الحيطان على اختلاف ارتفاعاتها، قالوا: «بيت المدهون، خوال خليل الشيخ سلامة، برطلوا المحكمة ودفعوا نيرات، لبعظ الناس».
وقالوا: «هذي محكمة عدل، الناس اللي فيها شرفا وما بيتبرطلوا بمال الدنيا» . وقالوا: «يا عمي لفلفوا القضية» . وقالوا: «البلد فوظى، حاكمينها لانجليز إللي مش هاممهم أصلاً كل اللي بيصير». وقالوا إنّ الإنجليز قالوا: «فخار فلسطيني وكسَّر بعضه». وقالوا إنّ يهود مستوطنة «نغباه» فرحوا، وقالوا: «غوييم قتل غوييم». وقالوا: «يا عمِّي الشرف غالي، وما حدا بتحمّل إهانة شرفه، وخليل دافع عن شرفه وشرف أخته» .
وتواصل نسج الخراريف والحكايات شهوراً. ولم تنغلق الأفواه إلا بعد أن تجمّعت في أفق المدينة غيوم الحرب. أما خليل الشيخ سلامة فقد خرج من السجن بريئاً كي يجد تهديدات آل قاسم تمشي على قدمين، وتطوف حارة لبد شارعاً شارعاً، وزقاقاً زقاقاً، وتهمس بصوت علا: «دم إبنّا ما بروح هدر» .
ومرّت أيام وأسابيع وشهور. وأمطرت السماء قنابل. وفرّ المجادلة جماعات يجرّون أقدامهم بين الرمل ومياه البحر، تاركين مدينتهم تغتسل بدم ضحاياها، وتتكفّن بنواح الأمهات. وذهب دمهم كلّه، ودم غيرهم، هدراً، تحت أقدام الجيوش العربية التي جاءت إلى فلسطين زاحفة نحو هزيمتها قبل أن تغادر معسكراتها إلى الحرب .
وطافت فلسطين دلعونا حزينة مثل غمامة نكبة تنذر بمطر وعواصف :
على دلعونا وعلى دلعونا
يهود العالم هاجروا هونا

أجونا العرب لينقذونا
ظيعوا البلد وراحت علينا

جاء جدي عشية خروج ابن شقيقته خليل من السجن، والقى في وجه أبي بقرار قال أن لا رجعة عنه: «اسمع يا خليل يابا. زرت ابن عمتك في بيتهم. أُأَطنب عليَّ هو وإمه وأبوه وخواتو الثنتين. قال لي: يا خال أني في عرظك. في هـالحارة ما رح أقدر أطلع من باب الدار. خايف يعملوها اولاد قاسم ويقتلوني، وأني بريء يا خال والمحكمة حكمت لي. وثرجَّتني أختي رقية آخذهم لعنَّا، اليوم قبل بكرة. وأني وافقت. ورح آخذ معي إخوتك محمود واعليم رح أحملهم بارودتين، ونطلع انجيب الجماعة بس الدنيا تعتّم، عشان ييجو يسكنو في بيتكم مؤقتاً لبينما الله يفرجها» .
أبي، كان يتمزق في داخله، ولم يعلق. أمي تمتمت همساً: «هوَّ عمل عَملته، واحنا يا سخام البين ندفع حقها! أدشّر بيتي ومطرحي، واتشحطط أني وجوزي وابني عشأَن ابن اَلشيخ سلامة. حكي ما بيرظي لا الله ولا عبيده» .
جدي التفت إليها
«قلتي إشي يا لطيفة»
وأخذ يتنقل في البيت بعصبية. أمي ردَّت: «إيش بدّي أقول يا عمي، بَدعي لألَّه تهدا الحوال، وما بصير إلاّ الخير»
«يبقى اتوكلنا على الله» .
قال جدي، وتابع بما يشبه الأوامر: «لمو هـاللي بِتقدرو تلموه من غراظكم وخذوه معكم. روحو لعند الحاجة خديجة الحلاق، إتاجرت لكم بيتها الثانَي» .

حمل أبي حاجيات قليلة لُمَّت على عجل، وتبعته أمي وأنا على يديها، بعد أن اغلقت الباب خلفها تاركة كل شيء على حاله، الفراش، الملابس، القيشاني، الصحون، أدوات المطبخ، أدوات زينتها، الحمرة والبودرة والمكحلة النحاسية الصغيرة ومشط العظم العريض، شالاتها الحرير، أحلامها الناعمة ملقاة على سريرها، وذكرياتها الحلوة والمرة. ولم تأخذ معها سوى حليها الذهبية التي وضعتها حول رقبتها وفي معصميها، ومضت وفي عينيها بركة دموع يسبح فيها أهل المجدل بأكملهم، وحسرة على زمن لن يعود، وفراق بيت في مدينة لن تفتح لنا أبوابها ثانية .

باب النكبة

لم تكن الهدنة التي دعت إليها الأمم المتحدة في اجتماع خاص، عقد في الأول من ابريل/ نيسان1948، سوى كذبة ذلك اليوم. فقد أطلقت منظمة «هاغاناه» اليهودية أولى حملاتها العسكرية، في إطار سلسلة من ثلاث عشرة حملة، تضمنتها خطتها المعنونة بـ«توخنيت دالت» (الخطة د)، بهدف توسيع القطاع

اليهودي باتجاه شرق البلاد بالقوة المسلحة. واستهدفت ثماني عمليات منها قرى عربية تقع خارج المنطقة المخصصة لليهود في خطّة التقسيم، التي اعتمدتها الأمم المتحدة في 29 نوفمبر / تشرين الثاني 1947، ورفضها الجانب العربي.

وفي الفترة نفسها، أطلقت الهاغاناه عملية «نخشون». وقد تلقى قائد المنظمة، يسرائيل غليلي، أوامر بتدمير جميع البلدات والقرى العربية، الواقعة على الطريق بين خلدة والقدس، والتي قد تقاوم، أو تعترض تقدم قواته على أن يكون احتلال هذه المناطق. دائماً، حتى لو أدى ذلك إلى طرد سكانها. وسقطت قرية القسطل الواقعة غرب مدينة القدس بيد «الهاغاناه». وقتل في محاولة استردادها القائد الفلسطيني عبد القادر الحسيني. ودخلت الحرب مرحلة حرجة وخطرة.

أمضى والدي الشهور التالية في بيت الحاجة خديجة في قلق، يستيقظان على التوتر الذي يصحو مع سكان المدينة ولا ينام. وينامان على خوف غامض زاحف بما يجهلان. وحكومة الانتداب البريطاني تخفف من تواجدها المدني والعسكري، وتقوم بتفكيك بعض معسكراتها. ويفقد أبي وظيفته ككاتب في العسكر القريب من الفالوجا. ويستأجر مقهى وسط المدينة، يديره ومحمود دبُّك المدهون. يجمع منه أبي لقمة عيش سرعان ما تتلوّن بالخوف وتتغمس بالقلق.

ومذياع المقهى الهولندي الكبير ماركة «فيليبس»، الذي يشبه صحارة الخيار، لا يعرف الفرح ولا يدلّه احد على مصادره. والزبائن يريدون الاستماع إلى الأخبار، والأخبار تأتيهم محمَّلة بالحرائق والأدخنة المتصاعدة من قرى فلسطين ومدنها التي دهمتها حروب صغيرة.

وتكف ألسنة المتحلقين حول طاولات اللعب عن مضغ قصص الزواج والطلاق. وينسون خليل الشيخ سلامة، يطفئون حكايته التي اشتعلت بزيت ألسنتهم شهوراً. وتلتهم أسئلة الحرب الغزل والنسيج وأقمشة البفتة والروزة التي تشتهر بصناعتها المجدل. ويتبادل الناس الهمس حيناً، والكلام المباح أحياناً. ولا يسمعون سوى أصواتهم: «فلسطين قاعدة بتروح يا ناس». وأبي يعود إلى أمي بأحاديث تسم البدن. فتغفو وهي تسب اليهود، وتلعن الذين سمحوا لهم بالهجرة إلى البلاد. وأحياناً لا تكمل عبارتها، وتنام عميقاً كأن البلد خلت من اليهود والإنجليز، معاً .

وينام أبي على آخر ما سمعه من أخبار. وفي الصباح يفتح عينيه وأبواب المقهى على قلق جديد. ويودِّع الناس العام 1947 حاملين معهم قلقهم إلى السنة الجديدة. ويدخل حمل أمي شهره الثاني. وتقتل منظمة «اتسيل» اليهودية (18) فلسطينياً في هجوم بالقنابل على منطقة مجاورة لحيفا في الحادي عشر من كانون الأول / ديسمبر 1947.

وتبقى الحرب بعيدة عن المجدل. ويزداد قلق المجادلة، لكنهم ينامون في آخر الليل، فوق فراش من هدوء مدينة تضع رأسها على شاطئ عسقلان، وتتغطى بخيوط غزلها وتغفو. وحيفا لا تنام. حيفا تظلّ مفتوحة العينين، والأرق يسكن صدرها. ويخوض قادة الحركة الصهيونية من «الهاغاناه» إلى «اتسيل» و«شتيرن» و«ليحي»، سباقاً محموماً لتحقيق قيام دولة يهودية على أرض فلسطين. وتستعد القوات البريطانية لإنهاء انتدابها المتوصل منذ العام 1919، وتفكك المزيد من معسكراتها.

وتعود العائلات البريطانية إلى بلادها تاركة أبناءها خلفها يؤثثون البيت الفلسطيني لإقامة طويلة

لليهود. ويكبر الجنين في بطن أمي. وحملات التطهير العرقي تتزايد. ويحث زعيم التجمع اليهودي في فلسطين، دافيد بن غوريون اليهود في البلاد، على العمل بكل الوسائل لإجلاء الفلسطينيين في مدينتي يافا وحيفا. ويدعو ضباط المخابرات في «الهاغاناه» إلى تدمير وسائل النقل في المدينتين. ويتبنى رئيسها «غليلي»،ما أسماه سياسة «الدفاع النشط» بالرد على الهجمات العربية من خلال استهداف مناطق ومواطنين عرب .

ويغيب المجدليون خلف أنوال نسيجهم، بعيداً عن تفاصيل ما يجري خلف حيطان المستوطنات اليهودية وبيوت تل–أبيب. يلتقطون النتائج من الجرائد القليلة ومحطات الإذاعات. منذ أواسط ديسمبر وحتى أبريل 1948، هوجمت سبع عشرة قرية فلسطينية خلال ساعات العمل. كانت عند جدي بندقيتان، أخرجهما مرّة واحدة عندما أطنب عليه ابن أخته، خليل سلامة، وطلب منه حمايته من انتقام آل قاسم، ثم أعادهما إلى نومتهما الأبدية في قنّ للدجاج. وقتل ستمائة فلسطيني غالبيتهم من النساء والأطفال في أقل من خمسة شهور. واحتفلت «ايتسيل» و«ليحي» و«هاغاناه» بقتل مائة وواحد وستين فلسطينياً، كما قتل خمسة عشر فلسطينياً في هجمات استهدفت حافلات للنقل المدني.

واعترفت المنظمات تلك بمسؤوليتها عن إلقاء سبع قنابل يدوية في الأسواق، وعلى المقاهي، وتسع قنابل أخرى على حافلات للنقل، إضافة إلى تفجير قطارات للركاب في أربع مناسبات على الأقل أسفرت عن مقتل ثلاثة وتسعين شخصاً، وجرح مائة وواحد وستين شخصاً.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر الرابع عشر من أيار / مايو 1948 وقف زعيم التجمع اليهودي في فلسطين، دافيد بين غوريون، ليعلن بدء الاحتفالات بإعلان الدولة اليهودية .

كبر بطن أمي، إذ دخل حملها شهره السابع. وجاءت عمّتي تركض: «يا سخام البين إيش إللي مقعدكم هان والناس كلّها طفشت من البلد؟» واتفق الجميع على الهرب إلى الكروم والبساتين الواقعة خارج المدينة. نهض قادة «مجلس المقاطعات اليهود»، الذي سيصبح «الكنيست»، المجتمعون في متحف تل – أبيب، وأنشدوا «هاتكفاه» (الأمل) الذي سيصبح، لاحقاً، النشيد القومي لإسرائيل. وسمعت أصوات لطم خدود في المجدل. قرأ بن غوريون بيان «الاستقلال». وفي الختام صرخ، واهتز الشعر الكثيف المتجمع على جانبي رأسه مثل قرنين: «نعلن من هنا قيام الدولة اليهودية في فلسطين، تحت اسم «مدينات يسرائيل» (دولة إسرائيل).

وفي الدقيقة الأولى من فجر 15 أيار / مايو، أعلن، رسمياً استقلال إسرائيل. وبعد عشر دقائق فقط، أعلنت الولايات المتحدة الأميركية بلسان رئيسها، ترومان، أول اعتراف بدولة إسرائيل. وأتمت بريطانيا سحب قواتها، منهية بذلك انتدابها على فلسطين، فاتحة الباب أمام أول حرب عربية – إسرائيلية.

عبر خمسة عشر ألف جندي يمثلون العراق وسوريا ولبنان والحدود الشمالية لفلسطين مزودين باثنين وعشرين دبابة خفيفة وعشر طائرات من طراز «سبت فايرز»، وتقدمت قوتان مصريتان من الجنوب. جاء عمي اعليم راكضا. كان الوقت ظهراً. جوّ حارّ نسبياً، يغطي مساحة من سكون غرق فيه المقهى الذي لا يعرف السكون. الروّاد قلائل وتسليتهم الوحيدة هي الهمس بالأخبار القلية التي تصل إليهم بالتناقل، أو يأتي بها المذياع. وقف عمي بالباب: «المصريين صاروا على أبواب البلد».

كانت أخبار تقدم القوات المصرية تصل إلى المجدل تباعاً من قبل مسافرين أكدوا أنت القوة تقدمت إلى غزة من مركز قيادتها وإمدادها في العريش، حيث تمركزت ثلاث كتائب مزوّدة بالمدفعية والدبابات بقيادة رئيس الأركان الجنرال فؤاد صادق. وقد اشتبكت القوة المصرية في طريقها إلى المجدل مع المسلحين اليهود في مستوطنة «كفار كدوميم» وكبّدتهم خسائر كبيرة. وقف أبي يوزّع ابتسامة عريضة على زبائنه الذين نهضوا عن كراسيهم، ووقفوا بباب المقهى يحتسون ما تبقى في أكوابهم. ويتبادلون التوقعات. اقترب محمود دبك من أبي وهمس في أذنه: «مش قلت لك العرب رح يعملوها ويحاربوا اليهود» .

زحف هدير المدرعات المصرية إلى المدينة قبل جنازيرها. وحين وصلت، دخلت في طقوس الاحتفاء المجدلي بها، وسبحت عيون المستقبلين في بحر العلم الأخضر الذي اعتلى أول دبابة وتقدّم الجميع. استراحوا في حضن هلاله الأبيض مثل صباحهم. وخلال دقائق، سكن نصف المجادلة شوارع مدينتهم، وغطّوا القوات المصرية بشال أبيض من الرز والملح والزغاريد. ورقصت النساء، وهاهت وزغردت:

إيبا ويا ميت مرحبا باللي جاي

إيبا ويا وطلتكم علينا بدر وحرب ع لعداي

إيبا وافرحوا يا مجادلة وتهنو

إيبا وبعون الله ونبيه محمد النصر جاي

ألولولولولولولولولولولولولولولولولولوي

وطارت مواويل الميجنا والعتابا في سماء المدينة مثل حمام أبيض. وتقدم رئيس البلدية سيد أبو شرخ، شاقاً طريقه بين الزغاريد والفرح، نحو قيادة القوات المصرية، مستقبلاً ومرّحباً باسم سكان المدينة. وأطلّت رؤوس من فتحات الدبابات وجلس آخرون يراقبون الفرح يمشي في شوارع المدينة. ورأيت أمي تجلس فوق الدرجة الرخامية الثالثة، أمام باب بيتنا الأخضر مثل الزيتون. ولم أكف عن رؤيتها على مر الزمن، تتبادل حديثاً مع امرأة محت الأيام ما كان لها من ملامح، وأنا بين ساقيها. رأسي ملقى على صدرها، مرفقاي مستريحان فوق ركبتيها، شفتاي تمصمصان أصابع كفيَّ بالتناوب، فيما تحك قدماي الصغيرتان الحافيتان الأرض الطينية بين قدميها.

وأسمع أصواتاً ذات رنين تدق أبواب الذاكرة، وأرى رجالاً يركضون ويتصايحون، وهم يعبرون الشارع أمامنا:

الجيش المصري أجانا

قطع روس «الهاغاناه»

وأسمع زغاريد. هل انطلقت من بين شفتي أمي، أم شفتي المرأة في تلك اللحظة. بعد سنين طويلة أفهم ما صاح به الرجال، وأعرف أنه هتافات، وحين أبلغ العاشرة، أشمّ رائحة الزغاريد. أُذكِّر والدي بالهتافات. ألتفت إليه وأسأله: إيش صار يابا في الهتافات. يتطلع عالياً يبحث عن مخرج بين قطع السقف القرميدي، ولا يجيب. استقرت داخل المجدل. وفي محيطها قوتان مصريتان: الأولى، وهي الرئيسة وقادها الميجور

جنرال أحمد علي المواوي، الذي أقام في بيت تعود ملكيته إلى عائلة عباس عند طرف المدينة، فيما اتخذ عدد من ضباطه من مدرسة الذكور، الواقعة خلف حديقة البلدية عند الطرف الجنوبي للمدينة، مقراً لهم. وتشكّلت هذه القوة من كتيبة المشاة الأولى، وكتيبة المشاة السادسة، وكتيبة المشاة التاسعة. وتضم كل من الكتائب الثلاث ما بين 700–750 جندياً. وكتيبة استطلاع (35 سيارة مسلحة). وكتيبة دبابات خفيفة (7 دبابات). وثلاث بطاريات مدفعية زنة 25 رطلاً (24 مدفعاً). وبطارية مدفعية واحدة زنة 18 رطلاً (8 مدافع). وقاد القوة الثانية الضابط أحمد عبد العزيز، يساعده أربعة ضباط و 124 جندياً مسلحا ببنادق و8 رشاشات «برن» آلية، وأربعة مدافع خفيفة (7.3 بوصة)، وأربعة مدافع مضادة لدبابات زنة رطلين.

وتم تقسيم القوة الجوية المساندة لهذه القوات إلى قسمين: قوة الخط الأمامي للجبهة المتمركزة في العريش، في سيناء، حيث القيادة العامة، وتضم ست طائرات قاذفة مقاتلة من طراز «سبت فايرز»، وطائرتي استطلاع «داكوتا». أما القوة الثانية فتمركزت في القاهرة، وتضم ست طائرات، وخمس طائرات نقل، وطائرة استطلاع واحدة .

أشاع وجود القوات المصرية الثقة بين المواطنين، وساعد ذلك على اندفاع عدد من المتطوّعين الفلسطينيين للقيام بعمليات ضد القوات العسكرية للهاغاناه والمستوطنين المسلحين، غير أن القوات المصرية افتقرت، بشدة إلى وضوح الأهداف، فيما افتقدت قوات المتطوّعين، البالغ عددها ما بين 3200–4000 مقاتل، غالبيتهم أعضاء في حركة «الإخوان المسلمين» المصرية، إلى جانب عدد من السودانيين والليبيين، إلى التجانس وكفاءة التدريب .

تمحورت خطة القوات المصرية في مد القتال عبر خط يبدأ من المجدل، ويعبر الطريق إلى الفالوجا وبيت جبرين وصولاً إلى الخليل، لعزل 25 مستوطنة يهودية عن الجسم الرئيس للدولة اليهودية، كما حدّدتها خطة الأمم المتحدة للتقسيم العام 1947، وبهذا، يتم عزل منطقة النقب التي تشكل ثلث الدولة حسب الخطة عينها.

كان على هذه القوات، والقوات العربية الأخرى، التي عرفت بـ«جيش الإنقاذ» بقيادة فوزي القاوقجي، وقدّرها تقرير لوكالة المخابرات المركزية الأميركية صدر، لاحقاً، بتاريخ 27/7/1947، بسبعة وعشرين ألفاً، مع إمكانية جلب قوات أخرى متمركزة في الجوار تقدر بتسعة عشر ألف جندي، مواجهة 97 ألف مسلح يهودي، يتوزّعون على تشكيلات عسكرية عدة، أهمها قوات «الهاغاناه» البالغ عددها 35 ألفاً، و«ايتسل» و«ليحي» وحراسات المستوطنات وشرطتها .

وكانت القوات اليهودية حسنة التدريب، تتمتع بقدرات قتالية عالية، ولديها خبرات ميدانية وتقنية متقدمة .

هبط المساء خفيفاً. وانسحبت الشمس بهدوء، وألقت بجسدها البرتقالي في بحر عسقلان. ونامت المدينة تحلم بالنصر على وقع هتافاتها وأصوات الجنود:

الجيش المصري أجانا،
قطَّع روس الـ«هاغاناه» .

نشط مقهى أبي وبدأ يرتاده جنود وضباط مصريون. وحقق القادمون العرب انتصارات أولية ردّت أنفاساً تقطّعت. وفي السابع من الشهر التالي حزيران/يونيو سقط كيبوتس «نتسانيم»، الواقع على بعد ثمانية كيلومترات من المجدل في يد القوات المصرية، التي اندفعت شرقاً عبر عراق سويدان، والفالوجا، وعراق المنشية، إلى بيت جبرين والخليل، وفقاً لخطتها المرسومة. وخلال ستة شهور من القتال، تغيّرت صورة الموقف: احتفظت القوات العربية بالجزء الأكبر من الأراضي الفلسطينية تحت سيطرتها. وفشلت القوات اليهودية في استرداد مواقعها.

قوات الجامعة العربية تمركزت في الجبهة الشمالية إلى الجنوب من الناصرة. الجيش السوري سيطر على منطقة تمتد من الخليل إلى شواطئ جنوب منطقة الجليل، باستثناء عدد من المستوطنات الواقعة شرق المنطقة. الجيش العراقي يسيطر على وسط فلسطين ويمدّ سيطرته على جبهة طويلة تمتد غرباً نحو طولكرم وقلقيلية على بعد 12 كيلومتراً من الساحل. الجيش الأردني يسيطر على القاطع الجنوبي لوادي الأردن، والمنطقة المحيطة بالقدس والمدينة القديمة، ورام الله واللد والرملة .

تنفّست أمي الصعداء وهي تنتقل في البيت بحملها الذي بلغ شهره التاسع. وفي ختام تلك الانتصارات التي تبعتها استراحة امتدت أربعة أسابيع من 11/6-8/7/ 1948، تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي، أطلقت أنيسة الداية زغرودة حادة طويلة خرجت من بيت الحاجة خديجة الحلاق، وتناثرت على امتداد جبهات القتال المتوقفة عند الانتصارات العربية، ولدت أمي؛ ولدت على حافة الهدنة التي كانت تودع نفسها. وأطلق أبي على المولود اسم راسم. وكانت ملامحه خليطاً من أبي وجدي لأمي خليل نصرالله. كان طفلاً جميلاً ذا بشرة وشعر أصفر وعينين فاتحتين مثل عسل النحل الصافي. وسوف يُظهر، في طفولته وصباه لاحقاً مزايا أخرى ورثها عن جدي، تتجاوز اللون والملامح.

واصلت القوات المصرية التي اجتازت عراق سويدان تقدمها نحو الفالوجة. وتمكنت من تحقيق انتصار كاسح في عراق المنشية، بقيادة الضابط جمال عبد الناصر، ضابط أركان كتيبة المشاة السادسة. ثم حل الخريف ثقيلاً مثل هزيمة لم تقع بعد. وكانت رياحه عاصفة مترّبة، حتى أن قيادة القوات المصرية لم تعد ترى، وقد زحفت الرمال فوق خرائط خططها العسكرية، وطمست أمام أعين قادتها التفاصيل. وهي مهّدت، بخطأ استراتيجي، لانكسارات عميقة وهزائم متلاحقة. كانت القيادة المصرية قسّمت قواتها إلى ثلاثة قطاعات لا رابط بينها العريش والنقب، ساحل غزة وقيادته في المجدل، والقوات المتمركزة في قاطع الفالوجة – عراق المنشية شمال صحراء النقب .

وقد استغلت القوات اليهودية تمزق القوات المصرية على هذا النحو الأخرق، وشنّت هجوماً كبيراً مضاداً على محورين: الأول في سيناء – النقب، والثاني على محور عراق المنشية – الفالوجة. احتلّت منطقة مركزية حول العوجا في صحراء النقب .

وقطعت، بذلك، خطوط إمداد القوات المصرية، فيما كانت القوات المتمركزة في عراق المنشية تفقد مواقعها في المدينة. ووقعت القوات المتمركزة في الفالوجا، وعددها 4500 جندي تحت حصار استمر أربعة شهور. وخلال أسابيع صارت المجدل مدينة لاجئين. امتلأت حواريها وبساتينها، وحتى مقابرها، بآلاف العائلات التي دمّرت الحرب قراها، أو تلك التي هربت من أمام تقدم القوات اليهودية .

ها أننا وقد تجاوزت إشكالية تشابه مداخل الروايات، قد أوجدت لنفسي جملة استهلالية أفضت إلى عوالم عدّة لم تكن مقررة حين صعدت إلى القطار الذاهب إلى« كامدن تاون». وقادنا الاستماع، القارئ وأنا، إلى المقطوعة الأولى «صيد البدايات» إلى المجدل، وسكانها، وعائلتنا، ووالدي، والحرب العربية – الاسرائيلية الأولى، التي توقفت في الفقرة السابقة عند حصار الجيش المصري في الفالوجا، والذي سوف يضطر في نهاية الأمر إلى الانسحاب، تاركاً المجدل التي استقبلته بالزغاريد تلملم أغراضها وترحل عن نفسها. وهكذا رحلت عائلتنا مع الراحلين، عبّأت وطنها في شاحنة ومضت إلى نكبتها .

أعترف هنا، وبصراحة، أنني عندما بدأت سرد وقائع تلك الفترة، وملاحقة تفاصيل الهجرة، وجدتني كمن يكتب تاريخاً مدرسياً. تذكرت حكايات أمي. كانت كلماتها، وهي تتحدث عما جرى العام 1948، تفوح برائحة النكبة. كنت أشمّ رائحة النكبة وأبكي بمفردين بعيداً عنها. أخفي دموعي تحت الحائط. كان سردها ينطوي على طاقة انفعالية عالية، ويتمتع بقوة جمالية لا تتوفر إلا لمن كان طرفاً مباشراً في الحكاية، بطلاً من أبطال النكبة، وواحداً من ضحاياها.

أمي كانت بطلاً ورواية. أغراني ذلك بالتجريب، وبالتخلي عن دوري كراو، وتسليم مفاتيح السرد والكلام لأمي. قررت المغامرة، قررّت أن أمنحها الفرصة لكي تكتب ما تبقى منّ مقطوعة «باب النكبة». هل تستطيع أمي ذلك؟ وهي الأمّية التي لا تعرف شكل حروف اسمها. هل ما زالت تتذكّر؟ ما الذي بقي في ذاكرتها من وقائع الهجرة العام 1948؟ هل النكبات تُنسى، تذوب مع الأيام، تطحنها السنون، وتذروها رياح الغربة؟! كبرت أمي وبلغت السبعين. هدَّت حيلها السنون. بالكاد تستطيع الوصول إلى الهاتف، في بيت شقيقتي رحاب، في مدينة رفح جنوب قطاع غزة، حيث تقيم، هذه الأيام، مع حفيدتها أنسام، ابنة رحاب. أتصلّ بأمي، سوف يسعدها ذلك.

تقول كلما هاتفتها، عن مكالمتي ترفعها وتطير بها عالياً وبعيداً عن سطح الأرض. جسدها الذي لا تقوى على حمله خطوتين ترفعه كلماتي إلى السماء. غداً أجعلها تطير. تصير ملاكاً بجناحين من كلمات: «سبحان الله يمَّه، بس تقول لي أنسام خالي ربعي ع التليفون، بفز عن الأرظ، وبقوم زي لقرود، أني اللي يدوب بقدر أمشي وأروح للحمام» .

لم أر أمي، منذ الاحتلال الإسرائيلي العام 1967، سوى مرة واحدة. التقيتها رفقة زوجتي سناء، في بيت أخي راسم، في مخيم اليرموك جنوب دمشق، شتاء العام 1980. أمضينا معاً أربعاً وعشرين ساعة، فقط. كأننا خاضعان لإنذار ما: أربعاً وعشرين ساعة فقط وتعودان. عدنا بعدها إلى بيروت، لمتابعة عملنا في الإعلام المركزي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في حي الفاكهاني، أنا في أسبوعية «الحرية»، وسناء في أرشيف المعلومات التابع للإعلام نفسه. كيف سكتت أمي على ذلك؟ كيف سمحت لي بالعودة إلى بيروت، وقد مضى على آخر لقاء لنا أكثر من ثلاث عشرة سنة؟

منذ الساعات الأربع والعشرين تلك، لم ألتق أمي ثانية. أضحك بمرارة كلما تذكرت، مرّة من نفسي، فألعنها، ومرّة من أمي فألومها على تصديقها أن النضال يستوجب عودتي بتلك السرعة إلى بيروت، وأن المهمات الحزبية والنضالية التي انتظرتني في إعلام الديمقراطية، تاريخية، ومصيرية، وعاجلة

على الدوام. مع أنني لو بقيت في دمشق، قرب أمي، عشر سنوات أخرى، لما تغيّر شيء، ولما وقع ما لم يقع في السنوات الماضية، ولملأت أنا عينيها بصورتي، وملأت هي عيني بصورتها، بدلاً من الصور المغلوطة التي امتلأت بها عيناي وذاكرتي في سنوات جمهورية الضغط الفاكهاني الفلسطينية، ولدفّأت قلب أمي عشر سنوات أخرى، بكلمات أهم من الجدل الحزبي، الذي يزيد الضغط ويوتّر الأعصاب، ويرفع عدد السجائر المستهلكة، أيضاً، إلى مستوى الانتحار البطيء. لم أكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان، ولم أكن المكتشف الوحيد لفوات أوانات لا تحصى أو تعدّ. هذه المرة، لن أدع الأوان يفوت .

---

* روائي فلسطيني يقيم في لندن .

(1) الجزء الأول والثاني من سيرة روائية ستصدر قريباً .